

ملف القدس

نادرة شلهوب - كيفوركيان *

القدس وفلسطين والسياسات
اليومية الكولونيالية

ترصد الكاتبة، في هذه المقالة، السياسة الإسرائيلية في الاستيلاء على المكان، وتأثيرات هذه السياسة في البيت والجسد الفردي والحيز الإنساني والمجتمع. وتكشف الكاتبة كيف يعمل الاحتلال على ضبط الحياة اليومية للفلسطينيين، ولا سيما في القدس، بوسائل كابحة، وكيف يصوغ الفلسطينيون مهاراتهم لمقاومة هذه السيطرة، وذلك النظام الكولونيالي الشامل الذي يمعن في الاستحواذ على الجغرافيا الفلسطينية في مدينة القدس بالتحديد. وتتعبق الكاتبة عملية تزوير الحقائق التي تنتهجها السلطات الإسرائيلية حين تستخدم خطاباً "إنسانياً" وحقوقياً للتغطية، في الوقت نفسه، على امتهان الإنسان وكرامته. وتحتوي المقالة أمثلة كثيرة مستلة من الحياة اليومية التي يعيش المقدسيون تفصيلاتها المؤلمة.

شتى، ولها توجهات متعددة، كما أنها تنتج طرق مقاومتها اليومية التي تنبع وتنمو من الحيز المضبوط نفسه.

إن تحليل تكنولوجيا السيطرة على سياسة الحياة اليومية للفلسطينيين في القدس تعني أيضاً التعمق في دائمة "اللاوضوح" (Appadurai 1993) وفي حالة التعرية والاستثناء (Agamben 1998, 2006) التي تستخدم الحيز والزمان والمكان للفلسطينيين (انظر أيضاً: Hammami 2004؛ Shalhoub- Kevorkian 2009).

أحاول في هذه المقالة تحليل السياسة اليومية (de Certeau 2004) من حيث تكنولوجيا السيطرة واللاوضوح الدائم، وكذلك تفكيك سياسة التخويف والرقابة وتكنولوجيا "الأمن" والإرهاب، علاوة على التعمق في التجارب اليومية للفلسطينيين

يقودنا تحليل تأثير آلة الاحتلال، بأجهزتها وأساليبها، إلى التمعن في السياسة اليومية وتأثيرها في الحيز: البيت والمكان والزمان والجسد، وفي النسيج الاجتماعي والمسار الاقتصادي والنفسي. إن فهم السياسات اليومية يتطلب تحليل السياق التاريخي/السياسي والتمعن في الاستراتيجيات والتكتيكات التي يستعملها الفرد الفلسطيني في صموده ومقاومته. تكنولوجيا الاحتلال التي تعمل على ضبط الحياة اليومية الفلسطينية هي موضوع بحثنا هذا. فهذه التكنولوجيا تدير وتوجه وتكبح وتقلص وتبعثر وتوسع أو تلغي حياة الإنسان، وتعمل بدرجات

(*) مديرة برنامج الدراسات النسوية في مركز "مدى الكرمل" في حيفا، ومحاضرة في علم الإجرام والخدمة الاجتماعية في الجامعة العبرية في القدس.

اليومية في القدس اليوم بمعزل عن تاريخ القضية الفلسطينية؟
 تحاول هذه المقالة الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال بلورة مدلول تنظيري للسياسات اليومية في القدس، من حيث قدرتها على التأثير في الحرية الإنسانية. فالفرد المقدسي عليه أن يحسب يوماً كيف يتصرف ويعيش، فهاجس تحليل كل حركة، في المكان والزمان المتغيرين باستمرار والمفتتين، يتدخل ويغير مسارات الفرد والعائلة. ومن أجل فهم أفضل للتكنولوجيا السياسية اليومية في القدس المحتلة كما تظهر في الحياة اليومية - بحسب ما يقول المفكر ميشيل دو سيرتو (de Certeau 1984) - علينا أن ننظر عن قرب إلى التصرفات الإنسانية وتعددتها وخصوصيتها وعدم وضوحها وتقلبها وعدم القدرة على توقعها.
 كشفت مكرّم، وهي امرأة كبيرة في السن، تعيش في راس العمود، بكلامها الواضح والبسيط كيف يتفكك المكان الفلسطيني ويعاد صوغه يوماً من خلال حياة الناس ومسلكياتهم:

الناس مغلولي وكل يوم، كل ساعة، كل حركة بحسبونها علينا... مغلولي الناس ومقهورة... وهن هالشكنان، بتشوفهم بتمشوا بالقدس، هون براس العمود بتمشوا بين دورنا، قبال ولادنا... تقول بيت أبوهم... ويبنوا بيوت وقصور على أراضيها، وإحنا منقدرش نتحرك... مش قادرة أوصل الدكتور لأحكم عيوني... إنتي بس شوفي حالتنا وحالة بيوتنا... بيوتنا محشورة وكلها أمراض ورطوبة وما حدش غادر [قادر] يحط طوبي وللا حجر... كلوا بنهد... وأولادنا بالشوارع، حتى مدارسنا زي الزربية صائرة، هلولاد واحد فوق الثاني... بس لا يا خالتي... ما تتوهمي... مش بشطارتهم استولوا على البلاد... قبل الـ ٤٨ الإنجليز... إن لاقوا سكين مع العربي كانوا الإنجليز يحبسوه، واليهود كانوا يسرحوا ويمرحوا وكانوا يعطوهن سلاح.. والعالم شاف النكبة... وتفرجوا علينا، وغمض عيونو، والأمم المتحدة شافت، وحصت، ونظمت اللاجئ، عشان

المقدسيين، كما يعيشونها ويفسفونها. وتعتمد هذه الدراسة على التحليل الكيفي لملاحظات عن الحياة اليومية للفلسطينيين في القدس، عبر تحليل ٤٢ مقابلة أجريت في العام الماضي مع مقدسيات ومقدسيين في عدة مناطق في القدس. وقد أبدى هؤلاء استعدادهم لمشاركتي في تجاربهم وحياتهم اليومية عند إجابتهم عن سؤال: "ماذا يعني لك كونك فلسطينياً في القدس؟" وتقوم هذه الورقة على تحليل المعاني والمفاهيم وتأثيرات السياسة اليومية في القدس، وارتباطها بتكنولوجيا السيطرة التي تعمل من خلال النظام الاقتصادي/السياسي/القانوني، فضلاً عن الأجهزة "الأمنية" والاستيطان وضبط الحياة اليومية على أنواعها.

وتتمحور هذه المقالة حول خمس مسائل برزت عند إجراء تحليل المحتوى: المحور الأول هو التمعن في قضية الاستحواذ على الجغرافيا واختراقه حركة الفلسطيني وحياته اليومية: المحور الثاني هو تفكيك العلاقة بين التاريخ والجغرافيا وسياسات الحياة اليومية: المحور الثالث هو فهم آليات الأيديولوجيات الكولونيالية وحيات الفلسطينيين اليومية: المحور الرابع هو مناقشة ما أسماه العسكرة "المؤنسة" والحياة اليومية والموت في القدس؛ المحور الخامس هو معالجة اقتصادات الحياة والموت (نيكروبوليتيك/ Necropolitics) لدى المقاومة. وتبرز هذه المقالة الحاجة الماسة إلى التعمق الجدي في تحليل هشاشة الحياة اليومية للإنسان (Segal and Weizman 2003)، وفهم أساليب التعرية والإيذاء اليومي المنظم. إن تفكيك تكنولوجيا السيطرة تعدل موازين القوى وتغيرها، بهدف المساهمة في طرح فضاءات مناهضة لمشروع الاستحواذ على الإنسان بجغرافيته وأرضه وتاريخه.

كيف يمكن أن نعطي مدلولاً فكرياً - تحليلياً للسياسة اليومية للاحتلال الكولونيالي - الاستيطاني في القدس؟ هل يمكن أن نفهمها بعيداً عن السياق الجغرافي - السياسي، الاجتماعي والبيو - سياسي للاستيطان الاستعماري الإسرائيلي؟ وهل يمكن تحليل سياسات الحياة

تساعدهم يرتبوا أمورهم... والعرب أخ عالرب...
وكل مال الخليج ساعد مين؟ ساعد أميركا وساعد
الإنجليز، ساعد بوش السفاح، ساعد شارون يقتل
الناس بجنين وساعد نتنياهو يخلص عاغزة
وعلينا... مش بشطارتهم... لا مش بشطارتهم
سرقوا للبلاد.

عندها تدخل زوجها أبو سامر قائلاً إنهم حتى
عندما هدموا بيته الذي تعب كثيراً في تجميع المال
لبنائها، وحتى عندها، تدخلوا ليضايقوه ويمنعوه من
الجلوس على حجر سقط من بيته:

بدهم يقتلوننا بالحيا... يا مستورة هدوا البيت
على يللي فيو، وأنا انههد حيلي، قعدت على حجر
من هل حجارة، وصار الجندي يصيح "تزوج
ميكان... تزوج ميكان... ماهر... زوز... يعني
تحرك زيح... قتلته: الحجر هادا إلي... البيت
هدتوه... كمان الحجر ممنوع تقعد عليه؟

توقف أبو سامر عن الحديث، ابتلع دمة كادت
تسقط من عينيه، ثم التفت إلى محمود ابن الجيران
الصغير وقال لي: "أسأليه. أسأليه ليش حامل
هالشنطة الكبيرة على ظهره؟"
وعندما سألته قال: "لازم إحمل شنطاتي...
وكووول العابي... شو بدك يهدوا البيت عليهم
كمان؟؟؟"

من أجل فهم علاقة السياسات اليومية للدولة
اليهودية، بما يحمله محمود، وما يشعر به ويخبئه
أبو سامر، وما تحلله مكرم (أم سامر)، ومن أجل
تحليل معاني احتلال الحياة اليومية لحياة
المقدسيين، وفهم أساليب المقاومة، فإن هذه المقالة
تحاول تفنيد استراتيجيات السلطة الاستعمارية
وتقنياتها الاستيطانية التي تضبط منظومة الحياة
اليومية في القدس. وأنا أقدم في هذه المقالة
مقاربة لعمل سياسات قمع المسار الطبيعي اليومي
المقدس من جهة، واستراتيجيات الفلسطينيين
ومهاراتهم في مقاومته من جهة أخرى، وذلك من
خلال تحدي النظرة الشمولية لسياسات التهويد
والاستعمار العاملة على ضبط دقائق الحياة

الاجتماعية. كما تحاول هذه المقالة تفكيك نظام
السيطرة التي تستخدمها الدولة اليهودية لتحدي
مقاومة هذه السيطرة التي أفرزها المجتمع.
إن تفكيك آليات السلطة الصهيونية في
احتفالياتها العامة من خلال إغلاق الطرق لملاحقة
أطفال قاوموا إغلاق مسار لعبهم اليومي في شوارع
حي الطور، على سبيل المثال، أو إقحام الجيش في
معالجة قضية فتاة رفضت منعها من الوصول إلى
جامعتها، أو اعتقال محام عند تحديهم ومنعهم من
هدم بيت ووضع الأعلام الإسرائيلية، والأضواء،
وتوظيف الفن، والتماثيل، والورود، والبساتين،
والصور، والشوارع التي تعج بالحدائث، والطقوس
السلطوية على أنواعها كجلب آلاف من رجال الشرطة
والجيش ونسائهم وغيرهم - وهذا كله لإنتاج مواقع
لـ "شرعية" لا شرعية لها. إن تفكيك استخدام هذه
المسلكيات وتوظيفها، يساعدنا في تحليل عالم
الرموز والمعاني الظاهرة في القدس، والتي تحاول
تعزيز النظم السلطوية للكيان الصهيوني على أرض
فلسطين.

إن تحليل ثيولوجيا الأمن الإسرائيلي، وفيضياء
القوة الذي يعمل لمصلحة المستوطنين، ستم
مناقشته من خلال دراسة جهاز العمليات/
المناورات المركب الذي يقوم ببناء ثقافات متعددة،
والتي بدورها تُظهر نماذج لمميزات عملية لمن
يستخدمها. كيف يمكننا فهم منطق المناورة في ظل
سياسات الحياة اليومية هذه؟ متى تظهر الطقوس
الجديدة والتغيرات؟ متى وكيف ولماذا هناك مناورة
ضد المكان والزمان؟ من هي القوى التي تدير
سياسات الحياة اليومية؟ وما هي النضالات
المتوقعة؟ كيف يؤثر مجال النشاط في الوقت
والمنطق واللغة، وفي الحياة والموت؟
سنناقش خمسة محاور:

- ١ - يوميات الاستحواذ على الجغرافيا.
- ٢ - بين التاريخ والجغرافيا والديموغرافيا
وسياسات الحياة اليومية.
- ٣ - بين آليات الأيديولوجيات الكولونيالية
وحياة الفلسطيني اليومية.

مع ابنة خالتها، ورمتها بحقيبتها المدرسية لأنها سخرت منها عندما أكلت العصرونة قبل ميعادها، قفزت الشرطة الإسرائيلية لتتدخل وتوقف الصغيرتين مع مجموعة الأطفال السبعة الذين كانوا بقربهم وهم في طريقهم إلى مدرستهم. إن نظام "الرقابة"، "الأمني"، العامل بجميع فروعه الأمنية المشيدة داخل المدينة وأزقتها، ومدخلها، ومخارجها، قام بإرهاب نهيل وابنة خالتها والأطفال، ورأى في ذلك الخلاف البريء محاولة شغب كانت ستؤدي إلى رمي الشرطة بالحجارة، في الوقت الذي كانت الشرطة تحاول "حفظ الأمن" في سلوان المحتلة. إن هذا "المنظم" البوليسي والسلطوي، يقبع في كل مكان وزقاق، كي يثير شعوراً كثيفاً بالإرهاب والرقابة المستديمة. وعندما أوقفتُ الشرطي لأسأله لماذا يخيف الأطفال، وما سبب تدخله، وعندما حاولت الطلب منه أن ينظر إلى وجوههم المذعورة، ويسمع ارتجافة نهيل وبكاءها تناسى وجودي وكلامي، وبدأ ينظر ويفتش في حقائب الأطفال باحثاً عن حجارة، عندها ركضت نهيل في اتجاهي، ساحبة الدفتر من حقيبتها لتقول له:

شوف... شوف... مش مكتوب إشي غلط بدفترتي...
هاي بس دروسي... ما سويت إشي، والله ما
سويت... خلينا نروح عالمدرسة... الله يخليك...
خلينا.

كأن دفتر نهيل وكتابتها، ككيانها، يحتاجان إلى موافقات أمنية. كأن صوتها المتحشرج المملوء بالرعب مسموع، أو أن جسدها المرتعب الراجف مرئي، أو حتى كيانها كشعبها محط اعتبار؟؟ كل شيء في القدس محدود الضمان، هذا إذا كان يملك ضماناً. كل خطوة وحركة موجودة في حقل المراقبة، وتتنقل تحت المراقبة، كدفتر نهيل وكتابتها الأولية. ومن المحتمل - بحسب ما أراه من مسلكيات الشرطة وجيش الاحتلال - أن سلوك نهيل المشكوك في أمره، تم توثيقه في نظام أرشيفي آمن معقد، يحلل احتمالات لا احتمال فيها. إن أهداف هذا

٤ - العسكرة "المؤنسة" والحياة اليومية والموت في القدس.

٥ - اقتصادات الحياة والموت (نيكروبوليتيك) لدى المقاومة.

١ - يوميات الاستحواذ على

الجغرافيا

الاستحواذ على الجغرافيا من أجل تطوير نظام أممي يحمل تهديدات فعلية ورمزية يومية هو أمر بارز في القدس، إذ لا يخفى على الناظر التفاعل الحي، والتناغم المعسكر، بين ما يحمله الحيز المقدسي من مشهد قامع - للفلسطيني/ة فقط - وبين نظام صهيوني ذي تعامل سلطوي وبوليسي يضبط جميع مرافق الحياة اليومية للإنسان/ة الفلسطيني/ة. إن وضع الحيز والإنسان، أكان حياً أم ميتاً، تحت المراقبة المستمرة، ينتج شعوراً عاماً بالتقطع واللاوضوح، ويخرق الحريات الخاصة، ليجعل الفرد يبرز تحت شعور طاغ بأنه تحت المراقبة، وأن عليه الخضوع للرقابة العامة والأ؟! يفرض الجهاز الأمني الإسرائيلي نظاماً قانونياً "يعترف" بحقوق الإنسان لمن عرّف كـ "إنسان". إنه نظام قانوني/استعماري/"أمني" يتدخل في دقائق المجتمع كلها، وفي حراكه اليومي والطبيعي. يهتم بالأشياء، وبالحركة في كل لحظة، وفي كل مكان - حتى داخل جدران المنزل الأسري - وذلك بهدف إنتاج إنسان مقدسي خاضع للنظام الانضباطي. إن هذا النظام اللاشخصي في طبيعته، هدفه إيذاء أي شخص، إذ لا حصانة لإنسان أياً يكن، طفلاً، رضيعاً، طالب مدرسة، مريضاً يصارع الموت، امرأة حاملاً في ساعة الولادة، أو حتى جسداً ميتاً في طريقه إلى مثواه الأخير. ويعمل هذا النظام الأمني من خلال الاستحواذ على الجغرافيا، والسيطرة على مداخل القرى وشوارع البلدات، والطرق الوعرية والمرصوفة، والأزقة الضيقة، وما يجري فيها من أحداث وأعمال وأقوال وتصرفات وآراء قيلت أو لم تقل. فعندما اختلفت نهيل البالغة من العمر ٨ أعوام

٢ - بين التاريخ والجغرافيا والديموغرافيا وسياسات الحياة اليومية

في أي خطاب عن القدس، وخصوصاً تاريخ القدس، بديباجاته المتنوعة، يختلط التاريخ الديني بالتاريخ الدنيوي، كي يرسم حدود جغرافيا جديدة، ويبنى معايير ديموغرافيا تتشكل لتكون مفاصل سياسية تحدد الإدراك الجماعي، وتفرض شرعية شائكة. إن القراءات المتعددة لتاريخ القدس، ولا سيما الاختلاط القائم بين قراءة التاريخ الدنيوي والتاريخ الديني، يزيدان في صعوبة إدارة الحياة اليومية الفلسطينية. إن فرض النصوص الإلهية والمقدسة التي تروي حكاية المدينة بطرق روحية وروحانية، ساهمت، ولا تزال، في صوغ التاريخ والجغرافيا، وفرض ديموغرافيا تزيد في صراعات القوى، وتحجب الإنسان الفلسطيني عن مكانه وزمانه لمصلحة الأيديولوجيا الصهيونية الاستعمارية اللاغية للفلسطيني في تاريخ القدس وحاضرها.

فيوميات الفلسطيني في القدس لا تبدأ إلا بالحفريات التي تبحث عن براهين لإثبات ما كُتب في التوراة، كأن التوراة كتاب تاريخ يحمل أدلة ثاقبة تؤكد موقع الأفراد بحسب انتماءاتهم. وعندما أنظر حولي، وأبحث عن أيامي بين ضجيج الحفريات في البلدة القديمة حيث أسكن، لا أرى إلا شرطة وجنوداً، يطبقون في أفعالهم القامعة، منهجيات ومعايير تربوا عليها، وبدت في أذهانهم أموراً توراتية واضحة لا لبس فيها، كأن ٣٠٠٠ سنة جُمدت، كي تُستعاد اليوم، ماحية كيان الفلسطيني وتاريخه وحياته؛ مغالطة لامنطقية لكنها بيعت للعالم بمنهاج أيديولوجي منمنق بعنصريته. إن هذه الأيديولوجيا النازية الطرح، قلبت حياة الفرد المقدسي رأساً على عقب، جاعلة منه كائناتاً محجوباً وزائلاً، مجرد عابر لا حق له في العبور. إن كتابة التاريخ، ومصادرة الأرض والمسكن، وهدم البيت وتشتيت أهله وقتلهم، أمور كلها تجري

التحرك والتوثيق الأمني الممنهج ليست فقط إثارة الذعر في قلوب الصغار كما الكبار، بل تقوية وتحديث نظام المحتل الرقابي الأمني الحداثي المشرّع بالقانون والمعتمد على التكنولوجيا، وذلك لتجميع قدرة ضبط إضافية (لم يكتفوا بسرقة الأرض، وعسكرة الحيز المقدسي وتحويله سجنًا)، فضلاً عن تجميع معلومات "خطرة" و"أمنية"؛ معلومات شديدة الدقة بحوثياتها، تُستخدم عند حاجة المحتل إليها، كي تتدخل في رسم حدود الإنسان المقدسي، لحجب إنسانيته، وتبني برامج اعتقال، من أجل رصد التحركات المنظمة السياسية لنهيل وأمثالها.

إن شمولية نظام السيطرة وعمله من خلال استحوازه على الجغرافيا، وتعامله مع دقائق الأمور، وقدرته على ملاحظة اللامحوظ، والدينامية الموجودة في مهارات المعارضة، عند محاولة نهيل تأكيد أن دفتها لا يحتوي "إشي غلط"، أمور كلها تعيد رسم حدود جديدة، لجغرافيا من نوع آخر. وما يثير اهتمامي هو حالات المواجهة الفردية الصغيرة واليومية، والمعارك الراضة للخضوع، لكن من دون ضجيج الجرافات الإسرائيلية الهادمة، والتي تؤكد وجود وعي معارض يحاول في كل لحظة، إعادة رسم الحدود بمعالمها المتعددة من أجل مقاومة الانصياع، وزعزعة علاقات القوة والسلطة.

وعلى الرغم من تعددية خيارات الحياة اليومية للطالبة الفلسطينية - على سبيل المثال - في اختيارها طرقاً متنوعة للوصول إلى المدرسة، فمرة تصل سيراً على الأقدام مستعملة الطريق الرئيسية، وتارة أخرى تستعمل الباص، أو تمشي مع أولاد الجيران على طرق التفافية لا تعوقها سيارات الجيب الإسرائيلية، أو تنام عند أقاربها لتخفف عنها مشقة الحواجز العسكرية الموقته والمنظمة... فإن تفاوت سياسات الحياة اليومية (من حيث المكان والزمان، أو حاجات الفرد)، تقدم صورة لأسس سياسات السيطرة والتهويد وأشكال مقاومتها.

عنها التوراة"، مستخدمة سياسات نيكروبوليتيكية تسمح بتعرية الفلسطينيين من حقه في البقاء. إن جرائم تسخير الديباجة الدينية لإلغاء حق الإنسان من خلال تهويد القدس، والتلاعب بجغرافيتها لإلغاء تاريخ الفلسطيني، هذه الجرائم شوهدت الرؤية الإنسانية، لدرجة فقدان البوصلة الأخلاقية والعلمية لحق المقموعين في رفض آليات إلغائهم المنمقة بلغة دينية، فكيف لنا أن نحاور منطقاً إلهياً يلغي وجود الفلسطيني؟ إن اختزال الإنسان يهدف إلى محوه في الواقع، وتكريس واقع جديد لا يُفَعَّل إلا من خلال آليات يومية وقانونية وإدارية وإجرائية تعمل على تهويد القدس وأسرلتها. وهذه الآليات لا تضيّق على الإنسان الفلسطيني وتطرده وتشتته فحسب، بل توسع حدود المدينة أيضاً، كي تحتكر مساحات أكبر من الأرض، فتصادر الأراضي، وتبني المستعمرات، وتهجر السكان المقدسيين من خلال مصادرة هوياتهم، كما تقوّي شبكة قوانين عنصرية تمنع الفلسطيني من الوجود "اللاقانوني" في البيت الذي ولد فيه، بحجة أنه موجود "غير قانوني" في إسرائيل.

٣ - بين آليات الأيديولوجيات

الكولونيالية وحياة الفلسطيني اليومية

يقول دو سيرتو عند تحليله سياسات الحياة اليومية، إن العرض يجب أن يركز على فهم مهارات الفاعلين وأسلوب عملهم، وتحليل طرق حركتهم اليومية، مشيراً إلى أن مهارات الحركة اليومية لا يمكن حجبها عن السياسة، وإنما يجب التعمق في مضامينها، وفي المعاني التي تحملها، وتوضيحها لأنها لا تخص الفرد وحده، بل تشير إلى تفكيك أساليب إدارة المسلكيات اليومية وعملياتها ومنطقها السياسي. إن ما يطرحه دو سيرتو يبين أن هدف الحياة اليومية هو التركيز على جهاز العمل ومنظومته التي في حد ذاتها، تكوّن ثقافة معينة، وتحمل نماذج عمل متنوعة لعدة مستخدمين.

في فلسطين، وفي يوميات القدس بدقائقها. وعلى أنقاض حياة الموجودين، ومن خلال الأيديولوجيات الديموغرافية الصهيونية، ينتج أولاً خطاب، ثم سياسة استعمارية، فخطوات وأنظمة تُبعد من تشاء، وتعطي حق السكن والبناء لمن تشاء، وتمحي وتنشئ وتسجن من تشاء، لتولد واقعاً جديداً يقرأ التاريخ ويكتبه لخدمته، ويلعب بالجغرافيا حتى يتم محو التاريخ، فلا يبقى إلا تأكيد حقوق اليهود وحدهم. وما يثير أسئلتي الأخلاقية، وخصوصاً عندما أنظر حولي في الجامعات الإسرائيلية والغربية، هو الجهد المستمر "العلمي" لعلماء في الغرب وفي إسرائيل، يحاورون هذه القراءات الدينية للتاريخ، بوسائل "علمية - تاريخية"، ثم يهرعون إلى الحفر كي يصنعوا علم آثار يثبت ما رسخ في أذهانهم من التعليمات الدينية كما فهمتها الأيديولوجيا الصهيونية، مسخّرين العلم لسياسات أيديولوجية عنصرية، عاملين على إلغاء الفلسطيني الأصلي، خائنين للأمانة العلمية، ولأخلاقيات البحث العلمي. فلو نظرنا إلى تأثير هذه القراءات اللا - أخلاقية، من خلال النظر إلى الديموغرافيا والجغرافيا، لرأينا أن السياسات الديموغرافية الإسرائيلية إنما تعمل من خلال سياسات العزل والفصل والإلغاء. ففي مخطط سنة ٢٠٠٨ الذي يسمى مخطط ٣٠ (أ) وُسِّعت القدس لتبدأ باللطرون وتنتهي ببيت لحم، ولتضم عدداً أكبر من المستوطنين اليهود بحيث يصبح الفلسطيني أقلية في قدسه؛ ومع أن هذا المخطط لم يوافق عليه، إلا إنه ينفذ فعلياً في جميع خطوات المحتل اليومية. كما يتم تخطيط سكة حديد تربط المستعمرات بالقدس، وتفصل أهالي القدس الفلسطينيين بعضهم عن بعض، فضلاً عن أنه جرت الموافقة في أيلول/سبتمبر ٢٠١٠ على مخطط لإقامة ١٦٦١ وحدة سكنية لليهود وحدهم، وغيرها من القرارات المعروفة وغير المعروفة. فتوسع القدس يتم من خلال ديباجة "إلهية" غير قابلة للمناقشة؛ ديباجة تجعل مناطق تبعد عشرات الكيلومترات عن القدس جزءاً لا يتجزأ من القدس، وتقلب مكانها ومكانتها إلى مكانة إلهية "حدثنا

بتفرج، ويتقرا التوراة تاعتهن... إشي بخزي... في الـ ٩٥ أعطونا إذن نبيع حامله، وخبيزة، وبانجان بتيري، إنت فاهمة... حتى للحاملة صار لازم إذن!!... وأفرحنا، ومدخولنا تحسن، لأنو قبل الانتفاضة الأولى كتير كتير ضيقوا علينا... وبين ٨٧ - لنص التسعينات هلكونا، ووضعنا الاقتصادي إندهور، وخسرت البيت بالضاحية (ضاحية البريد - من ضواحي القدس) ولا حد من أولادي كمل توجيهي، مع إنو مها وطارق كانوا كتير شاطرين. بعدها هونو علينا، وبطلو يذلونا علناً، بس اليوم، المذلة عالطالع والنازل، لا عارفين وين نبيع، ولا لمين نبيع (ماهدول المستوطنين بيجو يشتررو كمان، ومنخاف ما نبيعهم، ويروحوا يندكو علينا رزقتنا... ما النكد يا جارتنا بالشوات)، وحياة أولادي اللي ما بنعزو، والله والله... مش عارف حتى إذا اشتري ولا أبيع... إفتح البسطة، ولا أضلني مكسوح بيتي بلا هالبهدلة.

التجربة اليومية لأبي طارق الخضرجي ببساطتها، ومن خلال فقدان القدرة على السيطرة عليها، تعرض، وبعمق مؤلم، سلطة الاحتلال في احتفالية عنجهيتها، ومشاهدها المهينة التي تحاول إذلال أبو طارق كغيره، لتأكيد وإبراز سيطرتها، والبدء ببناء سياق اقتصادي - اجتماعي جديد يحاول التشديد على ضبط قوات الاحتلال لمجريات الأمور، بما في ذلك تحديد ما إذا كانت الحاملة تحتاج إلى رخصة لتكون على بسطة أبو طارق. ومن المؤسف أن العيون والمحللين المحليين والعالميين، حتى الآن، لم يحلوا عمق التحولات في تقنيات السلطة الاحتلالية، خلال أعوام الاحتلال.

٤ - العسكرية "المؤنسة" والحياة

اليومية والموت في القدس

إن قراءة الحيز المقدسي، من حيث التعمق في تفاصيل الحياة اليومية، تبرز جرائم إنسانية وجغرافية واقتصادية تكشف انتهاكات لحقوق

إن الحياة اليومية في القدس تتداخل مع السياسات اليومية للمستعمر، وهي بذلك تحدد المنظومات المعقدة وأماكن التلاقي واللاتلاقي بين أساليب عمل المجموعات والأفراد، وكذلك مرافق المشاركة، وفضاءات العراك والمقاومة، والتي يستخدمها المقدسيون لكسر سياسات الضبط اليومية وإيجاد بدائل لبناء حياة يومية جديدة. فعند وضع حاجز فجائي في مدخل البلدة، يُمنع الطلاب من الوصول إلى مدارسهم، فيتغير صباح الطلاب الفلسطينيين كي يصبح ذا معالم متنوعة. وهنا تثار التساؤلات بين الطلبة عن سبب وضع الحاجز، فيقرر البعض العودة إلى البيت، بينما ينتظر الآخرون على أمل بأن تحل القضية، كي يعود الصباح المقدسي إلى عهده، وهذا صعب. كما يقوم البعض بتحدي الشرطة والجنود من خلال الوقوف بقرب الحاجز، لمحاولة فهم ما يحدث، ولإعلام الآخرين، ويقرر بعضهم مواجهة الجنود والتصدي لمنعهم ومنع أهاليهم من الوصول إلى المدرسة أو العمل أو العلاج إلخ... فيحاولون المرور على الرغم من المنع، ويقابلون بالرفض، ثم يناقشون ويصرخون ويرفضون، فيستخدم الإسرائيليون أسلحتهم، ويشهرونها في وجه الطلاب، الأمر الذي يتسبب بإيجاد حيز وسياسات يومية جديدة، تصنعها التشابكات، والمقاومة، ومشادات تغير معالم المكان، وتقلب دور الوقت الصباحي المصحوب بطلاب المدارس والعمال وغيره، إلى زمن يُبنى فيه ومن خلاله حيز مضاد يوجِد استراتيجيات يومية هي خليط من الإقصاء والدمج والاحتواء، والمقاومة، والخوف، والرعب، واللاحول، وعدم الخوف والتصدي، وهي كلها أمور تقلب الصباح الفلسطيني للطلاب رأساً على عقب.

قال لي أبو طارق، وهو بائع خضروات في البلدة القديمة، بعد أن رأيته يعاني جزءاً مضايقة المستوطنين الساكنين في البلدة القديمة، وعدم تدخل الشرطة لإيقافهم:

بضحكوا علينا حتى يضيعوا الوقت، راحت القدس يا جارتنا، راحت البيوت بللي فيها، والعالم

والسكن معهم في القدس. ولو أرادت العائلات السكن معاً فإن عليها ترك القدس، وهذا في الوقت الذي يأتي اليهودي من أي مكان في العالم، ويسكن أينما يرغب، ويتمتع بالحقوق كلها، بما في ذلك حق الإقامة في جميع أنحاء فلسطين المحتلة، بما فيها القدس والمستعمرات، علاوة على جدار الفصل العنصري الذي خنق الحياة في القدس، ذلك بأن طوله البالغ ٨٨ كم، عزل البيوت والعائلات بعضها عن بعض، وفصل الأفراد عن مصادر رزقهم، والطلاب عن مدارسهم وكلياتهم وجامعاتهم. إن الجرائم الجغرافية وسرقة الأراضي من خلال مشروع الجدار العازل لم تكتف فقط بإخراج أكثر من ٨٠,٠٠٠ فلسطيني من القدس، والتسبب بالتهجير الداخلي لأهلها، بل تلاعبت بالتاريخ الفلسطيني الذي تسرده مختلف المعالم، كي تلغي فعلياً، وعلى أرض الواقع، الشوارع الرئيسية، بمرافقها التاريخية، كما أنها حولت أحياء وقرى كاملة إلى سجون خانقة عزلت الإنسان عن عائلته وأبنائه وعبادته ومشفاه، وحرمته حتى من مكان دفنه.

تنعكس هذه الجرائم في الحياة اليومية الفردية الصغيرة التي تنهار تحت ضغط أحوال رهيبية وغير متوقعة، تنتج حياة يومية لا اتجاه لها سوى إخراج الفلسطيني من أرضه ولغته وتاريخه. فعندما نكتشف أن امرأة حاملاً طلبت سيارة الإسعاف بسبب الذعر الناتج من خوفها من عدم قدرتها على قطع الحاجز للوصول إلى مستشفى الولادة، نفهم تأثير مهارات الإرهاب اليومية في حياة الفلسطيني الفردية، ونعي منطق العمل الإسرائيلي الممنهج في عنصريته ومنظومته، ونكتشف كل مرة، ومن جديد، أساليب المقاومة الفلسطينية. فالولادة في القدس قضية، لأن المرأة الفلسطينية التي تسكن البلدة القديمة، كانت تلد في مستشفى الهوسبيس، إلا إنه وبعد الاحتلال، بدأ التضيق الكبير على مستشفيات القدس، وبرزت صعوبات الوصول إليها، وأغلق المستشفى في البلدة القديمة. أمّا النساء اللواتي يحملن هويات غير مقدسية، ومع أنهن ولدن وعشن في القدس، أو تزوجن مقدسيين، مثلهن مثل

الإنسان بحسب القانون الدولي، وبحسب موثيق حقوق الإنسان على أنواعها، وتُبرز خروقات صارخة لحق الإنسان الفلسطيني في الحياة. فعسكرة الحيز المقدسي تتم أمام عيون جميع مؤسسات حقوق الإنسان العاملة في القدس، والتي تحصل على الدعم، وتُدفع رواتب موظفيها، في مقابل معاناة الفلسطينيين التي فشل العالم الحداثي ولغة حقوق الإنسان التي يرفعها، ومؤسسات الأمم المتحدة على أنواعها، في التخفيف منها، هذا في حين تُنتج قوات الاحتلال نواميس عسكرية "مُؤنسنة" (HUMANIZED) متداولة دولياً، ومذاعة على شاشات التلفزة، وفي عالم الإنترنت، وتُعتبر "منطقية" عند قادة الغرب، بصفتها نواميس "تحمي الأمن الإسرائيلي"، حارمة بذلك الإنسان الفلسطيني المقدسي من أدنى حقوقه في الحياة بكرامة.

فالقدس لم تصادر ولم تُوسّع كي تضم مستعمرات بعيدة، بهدف تهويد المكان وأسرلة الزمان فقط، بل أيضاً من أجل الإشارة إلى المدى الذي يمكن أن تتخذه عملية تزوير الحقائق حين يتم استخدام خطاب إنساني وحقوقى بهدف التغطية على امتهان الإنسان. فالمستعمرات تُبنى وتوسّع بأموال مؤسسات عالمية يهودية تقوم بتسويق القوانين العنصرية وجرائم الكراهية في فلسطين، بصفتها أمراً مقبولاً وشرعياً مدعماً بنصوص إلهية (تعتمد على التوراة) ولا مجال للجدال فيها. وقد صارت هذه النصوص مجرد تبرير لسرقة لقمة العيش، كما أنها دعمت إسرائيل في سن قوانين تسرق الأراضي من سكانها الأصليين، وتمول مجموعات يهودية تخترق الأحياء، غرفة غرفة وبيتاً بيتاً وحرارة حارة، وكل ذلك بموجب قوانين الدولة اليهودية، فصار القانون أداة للجريمة. فمن خلال القانون الإسرائيلي، جرى تزوير الوثائق لسرقة عدة بيوت في القدس، وبهذا القانون نفسه سُتتت العائلات، وقُذف بها في الشوارع كما حدث مع أم نبيل وأم كامل الكرد، ومع دار الحنّون ودار الغاوي، وبالقانون "المتحضر والديمقراطي" مُنع الفلسطيني والفلسطينية من الزواج ممن هم غير "مواطنين"

مُنَعُوا من الدخول إلى مقبرة راس العمود كحل بديل، وروت كيف تشاجر أولاد الفقيدة مع الجيش، وضربوا وضربوا، وانتهى بهم الأمر في السجن. كما حدثتني أم أحمد قصة أمها المريضة، فقد ولدت أم أحمد في القدس، غير أنها تقيم الآن في رام الله، لأنها تدير مشغلاً صغيراً للخياطة. وعندما علمت أم أحمد بمرض أمها، حاولت مراراً الوصول إلى المستشفى لزيارتها، وقد "هرَبَتْها" مرة في سيارتي (مع أنها تحمل هوية القدس، إلا إنها تخاف أن يسحبوها منها، لأنهم سحبوا هوية ابنتها عند مرورها على الحاجز). ومنذ سبعة أشهر، علمت أم أحمد أن وضع والدتها الصحي مقلق، فحاولت المرور، غير أن الجيش رفض تمريرها، فوقفت على الحاجز تبكي وترجو الجنود، ثم حاولت المرور من مخارج خلفية، إلا إنها مُنعت أيضاً، فعادت تتوسل مرة أخرى شارحة أن هذه فرصتها الأخيرة لتوديع أمها، وقالت: "قلتلو للجندي... ببوس إيدك، بس مرّقني... بس حيوانات، بلا رحمة... ذلوني ذل، في لحظة سمحوا، وقالولي امرقي، ولما مريت نص الطريق، رجّعوني... شو عذبوني... شو أهانوني". بقيت أم أحمد تتوسل من التاسعة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر، وعندها، اتصلت بها أختها لتعلمها بموت أمها في الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة. وتقول أم أحمد: "بتصدقي، ما بعرف وين أمي مدفوني، ما سمحولي حتى أنور قبرها". هكذا يصير الإنسان المقدسي من لحظة ولادته إلى لحظة دفنه، تائهاً في غياهب الحيز المعسكر الذي يجبر الناس، في كثير من الأحيان، على تهريب جثث موتاهم، كي يوصلوها إلى القبر "بأمان".

٥ - اقتصادات الحياة والموت نيكروبوليتيك) لدى المقاومة

إن استراتيجية السياسة الإسرائيلية في القدس لا تقوم على استبعاد الناس وقمعهم فحسب، بل تسعى لإجبارهم على التغيير والخضوع أيضاً، فهذه السياسة في القدس المحتلة تعمل على تحطيم

المقيمات خارج الجدار، أو في مناطق الحواجز العسكرية، أو البوابات العازلة، فإنهن يعشن ذعراً كبيراً طوال فترة الحمل. فضلاً عن مخاوف الولادة وآلام المخاض، فإن على الأسرة الفلسطينية بناء خطط واستراتيجيات عمل، لتحديد مكان الولادة. بعض الأسر ينتقل إلى بيوت الأقارب في الشهر الأخير من الحمل، وبعضها الآخر يبقي الحوامل بعيدات عن أسرهن، فيقمن عند الأقارب، وذلك لمنع أي إشكال يمكن أن يحدث، ولكل امرأة قصة. إحدى صديقاتي حامل في شهرها السابع وتسكن في ضاحية البريد، إلا إن هويتها المقدسية سُحبت منها قبل خمسة أشهر، وهي الآن تخطط للتسلل إلى القدس، وتعيش قلقاً كبيراً جزاء ذلك. وقد حدثتني قائلة:

خوفي كبير... كبير، وقلبي مش متحمل ضغط، سمعت عن هاي المرا من الولجة، اللي من خوفها ماتت هيبي واللي ببطنها قبل ما توصل المستشفى. شو هالعيشه... أنا مش عارفه شو أساوي، إذا ما ولدت بالقدس، بيجي الولد بدون هوية، ويتغلب كل حياته... إذا لازم أولد بالقدس، لازم أدبرلي طريقة، أو شي حدا يمرقني عن الحاجز. سلفي قالي إنو بساعدني، لأنو بحكي عبري... جارنا اليوم حكالي إنو في طريقة... كل واحد بحكي شي، وأنا وجوزي ضايعين بالمرة. بدل ما نفرح بهالولد قاعدين منترجا الناس يساعدونا.

منطق الحياة اليومية للمرأة الحامل تحت الاحتلال يتطلب البحث عن طرق خفية تتميز بالحركة السريعة عند بدء الطلق، عبر مناورة في الشوارع الخلفية تصل إلى ما يصعب الوصول إليه، وتتحدى الاحتلال.

الموت وفقدان عزيز في القدس هما أيضاً معضلة وأمر شديد الصعوبة. فعند الحديث مع فائزة، شرحت لي أن مقبرة راس العمود هي للسلاونة (أهل سلوان)، إلا إنه عند وفاة قريبتها منعتهم قوى الشرطة والجيش من دفنها في مقبرة باب الأسباط، كما

هذه المجابهات الفردية الحرة تضعه أمام صعوبات جمّة، غير أنها (المجابهات) تتجاوز الأفراد، لتطور ممارسات مقاومة منتشرة على نطاق واسع، وتحمل بدائل خلاقة. إن هذه الممارسات اليومية المقاومة، على الرغم من تلقائيتها، تشير إلى تواصل وتفاهم مجتمعي واع، وتعتمد لغة فلسطينية غير مكتوبة، تُفهم، وتُنشر على نطاق واسع على الرغم من لامحبتها (أي كونها غير محكية).

الخلاصة

ما عرضته هذه المقالة عن سياسات الحياة اليومية في القدس، تحكي قضية فلسطين. فبعد النكبة، دخل الفلسطينيون في ذعر كبير من حيث إدارة أمورهم اليومية، فأهالي صفورية، مثلاً، الذين هُجروا إلى الناصرة، أرادوا دفن موتاهم في مقبرة صفورية، لكن على الرغم من قرب المقبرة من مكان إقامتهم الجديد، كقرب مقبرة باب الأسباط من سكان حي ضاحية البريد بالقدس، وعلى الرغم من أنهم كانوا يستطيعون رؤية المقبرة من نوافذ منازلهم، كحال أهالي أبو ديس المقدسيين، إلا إن الجميع حُرّموا ذلك.

وعند النكبة، لم تتمكن النساء من الولادة بأمان، وعانت العائلات الفلسطينية الأمرين جرّاء الشتات والخنق الاقتصادي، واستخدمت إسرائيل أساليب ذعر وإرهاب متعددة. ولو قابلنا الأطفال والرجال والنساء الذين سُردوا إلى دير أبو اليتامى في الناصرة، أو الذين عانوا حياة اللجوء في مخيم جنين، أو الذين هُجروا إلى لبنان، وسكنوا المخيمات كعين الحلوة وصبرا وشاتيلا، ولو لاحقنا ما حدث مع مهجري يافا وحيفا واللد والرملة، ولو تابعنا كيف عاش الفلسطيني في بيته كمنفي، لعلمنا أن ما يحدث في القدس من معاناة يومية، هو إعلان صريح أن النكبة مستمرة.

إن ما تعرضه هذه المقالة هي الحاجة الماسة إلى التعمق في فهم سياسات الحياة اليومية في

المشهد المعماري ومحو التاريخ وإعادة رسم الجغرافيا الفلسطينية، عبر خلق معان وطقوس سياسية - اجتماعية جديدة. لكن، على الرغم من السياسات اليومية القامعة، فإن المجابهات الفردية تولد مهارات بدائية، غير مدروسة ومركبة، تشير إلى سعي الفلسطيني الدائم في القدس للتسلل خفية وبلا ضجيج، بهدف فتح مجالات وإمكانات جديدة تزخر بقوة المقاومة اليومية في ظل نيكروروبوليتيك يحمل اقتصادات موت الفلسطيني بطرق ممنهجة.

إن معيشة الفلسطيني في سياق ونظام استعماري استيطاني محتل، وداخل زمان ومكان معسكرين، تخلق مهارات مقاومة تولد بدورها صراعات بشأن التوقعات، ومفاوضات يومية، وقرارات لاختيار الزمن (متى "نهرب" العروس إلى عريستها في القدس)، وكيف نزين السيارة لنتفادي التفتيش، أو ربما نلبس زيّاً يشبه زي نساء المستعمرات، ونضع قبعة بدلاً من الحجاب، أو نربط الحجاب إلى الخلف مثلما تفعل تلك النسوة، ونفتح الراديو على إذاعة عبرية، ونطلب من الجارة التي عملت بالتنظيف في بيوت المستوطنين أن تقود السيارة لأنها تتكلم العبرية - كي تمرر العروس على الحاجز. هذه النقاشات والقرارات والصراعات كلها تُفعل منظومة عمل لها تكتيكاتها وتكنولوجيتها واقتصاداتها. إن النيكروروبوليتيك - أي اقتصادات الحياة والموت في القدس - يظهر جلياً من خلال علاقة الفرد المقدسي بالسلطة، ودوافعه إلى العيش التي توصله في بعض الأحيان، إلى الوقوف في الطابور لأخذ مخصصات التأمين لأولاده، أو الإذعان لقوانين بناء عنجهية، كي يبني له بيتاً (هذا إذا نجح)، أو دفع مدخراته كلها للمحامين، للمّ شمل أحد بناته أو أبنائه. وتكشف تفاصيل الحياة اليومية آلية علاقة المقدسي بالسلطة حتى إذا أُجبر، في كثير من الأحيان، على إعادة إنتاج خضوعه بنفسه، وبأسلوب غير محكي، وغير محسوس، إلا إنها تشير أيضاً إلى معارك المقاومة الصغيرة التي يرفض من خلالها الانصياع والإذعان.

المتعددة، ليس على إحداث صمود يومي فحسب، بل على إنتاج إنسان في مكان وزمان محددين، يعيش لا وجوده في وجوده، ويعاني الأمرين جرّاء اللاوضوح والإرهاب الذي يشّعه القانون. إن تفكيك تكنولوجيا الضبط الكولونيالية الإسرائيلية التي تهيمن على السياسات اليومية للفلسطيني المقدسي، يساعدنا في فهم ديناميات السلطة الكولونيالية وحدودها، ويسمح بتحويل خرق المحظورات والتحاييل عليها، إلى نظام من الممارسات والقيم، وي طرح فضاءات مقاومة بديلة، ويتمسك بالمعاني التي يحاول الاحتلال القضاء عليها، ويعطيها أبعاداً جديدة. ■

القدس، وإلى تحليل اليوميّات الفلسطينية والكشف عن عدم ثباتها، منذ النكبة حتى القدس. لكن على الرغم من هذه الهشاشة، فإن هناك منظومة عمل واضحة، فالاستيطان في أول بيت في سلوان، وسرقة البيوت غرفة غرفة في البلدة القديمة، ومصادرة البلدية الأراضي لمصلحة ما يسمى "تحسين" الطرق والمواصلات في القدس، وإلغاء خط باصات معين من بلدة معينة، أمور كلها تروي قصة الحياة اليومية للفلسطينيين ولفلسطين. إن تكنولوجيا الاحتلال التي تعمل على ضبط الحياة اليومية الفلسطينية، وتكنولوجيا السيطرة التي تدير وتوجّه وتكبّح وتقلّص وتبعثر وتوسّع أو تلغي حياة الإنسان، عملت، كما أشارت الشهادات

المراجع

- Agamben, Giorgio (1998). *Homo Sacer*. Stanford: Stanford University Press.
- — (2006). *State of Exception*. Chicago: Chicago University Press.
- Appadurai, A. (1993). "Number in the Colonial Imagination". In *Orientalism and the Postcolonial Predicament*. edited by C.A. Breckenridge & P. Van Der Veer. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, pp. 314-339.
- De Certeau, M. (1984). *The Practice of Everyday Life*. Volume 1. Berkeley: University of California Press.
- Hammami, Rema (Summer 2004). "On the Importance of Thugs: The Moral Economy of a Checkpoint". *Middle East Report*, no. 231.
- Segal, Rafi and Eyal Weizman, eds. (2003). *A Civilian Occupation: The Politics of Israeli Architecture*. New York: Verso.
- Shalhoub-Kevorkian, N. (2009). *Militarization and Violence Against Women in Conflict Zones: A Palestinian Case-Study*. Cambridge: Cambridge University Press, p. 340, <http://www.jerusalemquarterly.org/details.php?cat=2&id=8>
- Sibley, David (1995). *Geographies of Exclusion: Society and Difference in the West*. London; New York: Routledge.